قصة قصيرة

صوت الديك

بقلم: حسني سيد لبيب*

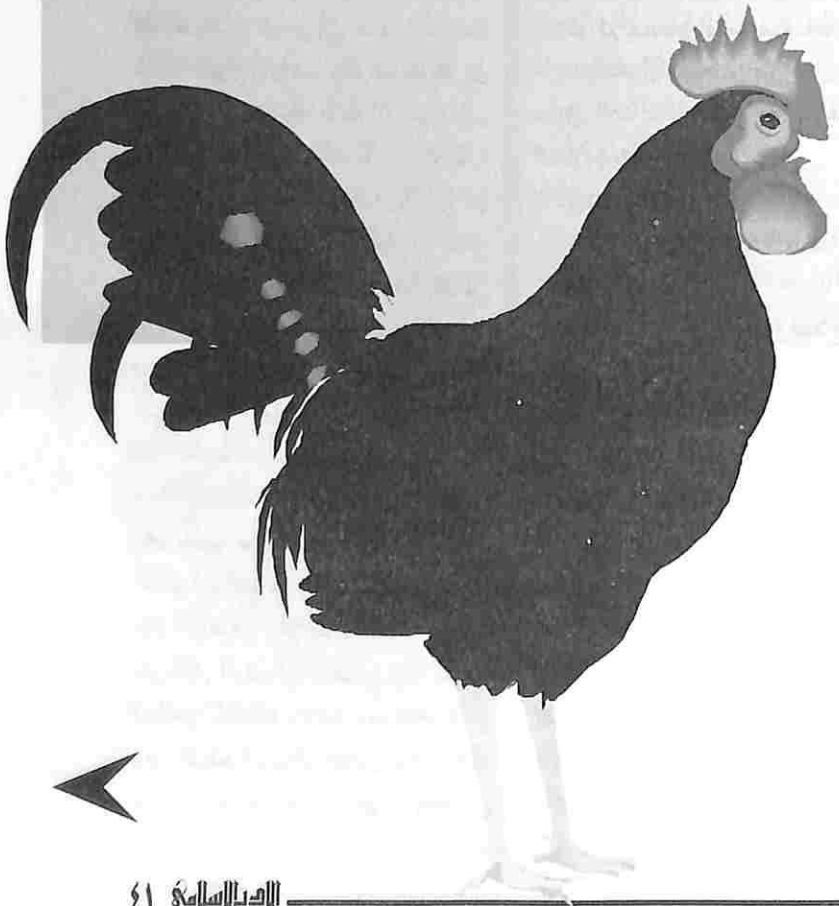

■■ طردت ابنها من البيت.. طردت أبا اليسر وزوجته وابنتيه. وما كان لها أن تأخذ موقفاً غير هذا، وقد انحاز إلى زوجته، ولام أمه التي تعبت في تربيته. كلمات اعتراض من أبيه يبددها هواء البيت الساكن الراكد، مع دخان لفائفه. تجهمت قائلة:

- إنه لا يخطئ سماح.. ألأنها زوجته؟

- بل لأن الحق معها.

- حتى أنت، تشهد لهم.

- أنت عصبية.

وما تستطيع تخطئة حماتها، التي استدرجتها في حديث لا ترغب فيه. ثم تناولت كلماتها، وفسرتها على أنها حماة تضيق الخناق حولها، فعنفتها وأهانتها، وألقت أطناناً من الكلام الجارح، ولما باحت لأبي اليسر، خطأ أمه، فصرخت في وجهه محتدة، كأنها تُنذر بنهاية العالم، وقالت بملء فيها:

- اخرج من البيت..

ردها الحاج رمضان:

- لا يصح.. أنطرد ابننا؟

سارعت سماح تجمع ثيابها وثياب نُهى ومنال في حقيبة واحدة وخرجت، وانتظرته عند عتبة الباب، منعها الحاج رمضان من ترك البيت. تشبثت بموقفها، وتركت لأبي اليسر الحرية في أن يصحبها أو يبقى، فتأبط ذراعها، وتعلقت نُهى بكتف أبيها ومنال بكتف أمها، تاركين الحاج رمضان يضرب كفا بكف، ملقيا اللوم عليها.. وكانت قد أسرعت إلى غرفتها، تعتصم بها، وتصده عن الكلام.

وفي الصباح، اتجهت إلى (عشة الفراخ) تطعم الدجاج، وتجول بعينيها في أرضية «العشة» المتناثرة عليها بقايا طعام، بالإضافة إلى انسكاب الماء من الإناء الصغير، وفضلات الدجاج.. جالت بعينيها مرات ومرات، عساها تصادف بيضة واحدة.. كأن الدجاج أضرب عن إنزال

البيض، كل الدجاج. هذا ثالث يوم، وكان ينبغي أن تجمع كل يوم ما بين ست أو سبع بيضات. تغلق «العشة» كاسفة البال، حار فكرها وانشغل بالها، ما السبب؟ تسأل الحاج رمضان، فلا تجد لديه إجابة مفيدة. وعلل ذلك بأنها قد تكون فترة انقطاع، يعود الدجاج بعدها إلى سابق عهده، نزلت من على السطح مكفهرة الوجه. اتجهت إلى جارتها أم حسين، وهي سيدة لها خبرتها الطويلة في تربية الطيور بكافة أنواعها. اكتسبت هذه الخبرة عبر سنوات طويلة، وهي التي شجعتها على تربية الدجاج والاستفادة بالبيض. طلبت أم حسين منها أن تصبر يومين أوثلاثة، لعلها حالة طارئة.

يجلس تامر بجانب جدته، لا يستقر على حال، ويثير الجلبة عند الجارة، فلكزته:

ـ اجلس هادئا، وإلا ارجع إلى جدك، حتى تعود أمك من عملها..

عاد تامر إلى البيت ليجد جده يصلي، فصعد الدرج المؤدي إلى السطح، قاصدا «عشة الفراخ»، وأخذ يشرئب بعنقه من خلال السلك الضيقة فتحاته، ليرنو إلى الدجاج، وحركاته الدائبة، ويلفت نظره الديك بعُرفه الأحمر، وقفزاته المتكررة من مكان لآخر، وفوق الدجاج، أراد أن يفتح باب «العشة» فخاف أن ينط الديك الشقي على كتفه، وينقر رقبته، فعل ذلك مرة فصرخ، وبكى كثيراً، وجرى وقتها إلى أمه التي احتضنته، وأخذت تنصحه بألا يقترب من «العشة»، يذكر هذا اليوم جيداً، وما فعله الديك معه، ومنذ ذلك اليوم، يحاذر وهو يقترب من «عشة الفراخ»، ناظراً إلى الباب ليتأكد من إغلاقه قبل أن يخطو خطوة واحدة. ومن خلال السلك، يتفرج على القفز العشوائي، ويعجب كثيراً بحركة الجناحين كأنهما مروحة، وصياح الفراخ وهي تلتقط الحَبّ من الأرض، وضع كفه على السلك، من أعلى، حتى لا يصل إلى كفه منقار من المناقير، لكن الديك العنيد، بقفزاته المتتالية، حاول أن يشرئب بعنقه لينقر كف الصغير، فأخفق في كل قفزة، فتامر متنبه لحركاته، وأخذ يحرك كفه لأعلى، خوفاً من منقار الديك، فرحاً بأنه يعجز عن الوصول إلى كفه.. وسمع ـ بالمصادفة ـ دجاجة وهي (تكاكي).. ولا تتحرك من مكانها، أو تسعى لتلتقط حبًا تأكله، أو تحتسي ماء، طفق يراقبها فترة طويلة، فإذا بها تضع بيضة. فرح تامر وهرع إلى جدته التي مازالت تجالس جارتها، وزفّ إليها البشرى.. فرحت، وهرعت إلى «العشة» فأذهلها ما رأت.. فقد تجمع كل الدجاج وتسابق في أكل البيضة!

يقفز تامر فرحاً بالبيضة التي رأى الفرخة تبيضها، فرحا بالكشف، أول مرة يرى دجاجة تبيض. له الحق أن يطلب من جدته أن تصنع له (العجة) التي يحبها. سبق جدته، إلى جده، وهو يختم صلاته، ليزف له البشرى بينا هرعت جدته إلى جارتها أم حسين، فاعترضها تامر سائلا عن البيضة، أزاحته من طريقها، زافرة في ضيق، لاعنة شقاوة العيال، «المعجونين بماء العفاريت»!

ـ أريد عجة..

ـ عجة!.. البيضة راحت.. افرح يا «مقصوف الرقبة»!..

تشرح أم حسين وصفة لعلاج الحالة، عبارة عن أكلة، تخلط فيها الردة بالماء ومواد أخرى، أخذت تحفظها وتستذكرها حتى لا تنسى، وكان رد فعل زوجها أنه أخذ يحوقل ضاربا كفا بكف، وأرجع ذلك إلى الديك المتساهل مع رعيته من الدجاج، ففي إمكانه منع الدجاج المهووس من أكل البيض، لكنه تراخى وتخلى عن دوره، مع أنه ليس هناك ديكة أخرى تنازعه.. لم تقتنع بكلامه:

ـ ما علاقة الديك بما حدث؟

ـ علاقة قوية..

عاد يحوقل ضاربا كف بكف، مستغفراً الله، وهو شديد التأثر من طرد ابنه وزوجته.

رجعت فايزة من عملها مرهقة، فرأت تامر يمزق أوراق كراريسه، ويرسم فيها فراخاً صغيرة بأجنحة كبيرة، صكت صدرها بكفها مصدومة..

ـ كراريس المدرسة.. أجننت؟

وألقت اللوم على أمها التي همّها حال الدجاج، وأهملت تامر..

ـ دعيني في المصيبة..

ـ مصيبة!

ـ الدجاج يأكل بيضه.. آخر زمن!

بعد أن حررت قدميها من الجورب، استلقت على الأريكة تلتمس الراحة من تعب المواصلات، باسطة ساقيها، سألت عن أخيها أبي اليسر وسماح ونُهى ومنال، فبادرها أبوها:

ـ أمك طردتهم.

واحتدم نقاش قصير بينه وبين الحاجة..

ـ سماح تعارضني..

ـ لم تخطىء سماح. طلبت منك ألا تتدخلي في تربية منال ونُهى. طلبت ذلك بأدب شديد، وهذا حقها كأم.

ـ أنت دائماً تقف ضدي.

ـ أبداً والله. أنا أقف مع الحق.

ـ اتركوني في المصيبة التي حطت على الدجاج..

يحوقل الحاج رمضان، منهيا النقاش القصير ومعربا عن ضيقه في آن!.. بينا تطلق زوجته زفرات ضيق:

ـ الدجاج يأكل بيضه!

تتنهد فايزة. تذكر ما قرأت في جريدة الصباح عن أم تعاقب ابنها لارتكابه خطأ ما، فأدمت يده ضربا مبرحا، وأصيب الولد بآلام والتهابات، هرعت به إلى مستشفى، فسارع الطبيب ببتر يده إنقاذا لحياته!

روت الفاجعة والأسى يخنق صوتها.

علق الحاج رمضان:

- كان الله في عون الولد.

بادرته فايزة:

- بل كان الله في عون أمه، قد أدمى الولد قلبها، قال لها: «أعدك بألا أفسد شيئا مرة ثانية، وأعيدي إليّ يدي».. إنها فاجعة.

ألقت كلماتها بتأثر شديد وهي تنهض من رقدتها، منتفضة، تنصت الأم في وجوم، ويحوقل الأب، مسلما الأمور كلها لله.

عاد رأفت من عمله، جلس يلتقط أنفاسه على الأريكة لصيق أخته. طفق يسمع الحادثة الفريدة، أو (المصيبة) كما تسميها أمه، التي وقعت في عشة الفراخ، قال لأمه:

- أعرف أن الأوز والبط قد يأكل بيضه أيضاً. حالة «هستيريا» تصيب الطيور..

يبادره الأب:

- وقد تصيب الإنسان..

وروت له فايزة فاجعة الأم التي تسببت في قطع يد ابنها..

- قصدت تربيته فجنت عليه وعلى نفسها. حالة «هستيرية» أصابت الأم فضربت بغير رحمة.

أصيب الإنسان بهوس، مثل الدبة التي قتلت صاحبها.

انصرفت الأم لتعد وصفة العلاج للدجاج، وانصرف الأب يلتمس الراحة ساعة القيلولة، وطفق رأفت يحكي لأخته الفساد المستشري في المصلحة، ونفاق الموظف كي يحصل على مكافأة أو علاوة أو ترقية، وندرة الموظف المثالي.

عجنت الخلطة حتي صارت متماسكة القوام، والتزمت بكل ما قالته أم حسين عن إعداد الخلطة، ثم صعدت إلى السطح، وأطلقت سراح الفراخ من «العشة» الحبيسة، فجرت في السطح متصايحة متقافزة، ووضعت طبق الأكل بجانب علبة من الصفيح مملوءة بالماء.. وأخذت تراقب من بعيد، إلى أن اطمأنت إلى تناولها للطعام العلاجي.

هرعت إليها فايزة..

- أم حسين مريضة..

نهضت لتبيت الدجاج، فحثتها أن تُسرع وتقوم هي بالمهمة.

أم حسين كثيرة الشكوى من آلام الكلى. وكثيراً ما نصحتها بالذهاب إلى طبيب، لكنها تعاند وتقول:

- الله هو الشافي.

وتطلب منها أن تغلي اليانسون شرابها المفضل، وجالستها بعضا من الوقت حتى أوشكت أن تغفو.

لازمت الحاجة جارتها أياماً عديدة، لا تتركها إلا عند النوم، حتى اطمأنت إلى استقرار حالتها. ولما استردت عافيتها، بدأت تسأل عن الفراخ آكلة البيض. وكانت الحاجة قد نسيت، بعد أن طمأنها الحاج رمضان إلى أنه يرابض أمام العشة، وقت إنزال البيضة، ويخطفها بخفة، قبل أن ينالها منقار واحد!.. ولا ينكر ما في المهمة الصعبة من توتر وطول بال، لكنها أفضل من ترك البيض يؤكل! واستطاع الحاج إنقاذ تسع بيضات، لكنه أخفق بعدها، يبدو أن الدجاج أخلف موعد الإباضة، حتى يخيب أمل الحاج! فمرة يتجه إلى «العشة»، فيجد آثار معركة التهام البيض، من البقايا المتناثرة من قشر البيض وبقع السائل الأصفر المتجمد، فيتأكد له أنه جاء متأخراً. وحين يبكر في اليوم التالي، يظل جالساً على كرسيه ما يقرب من الساعتين، دون أن تبيض دجاجة واحدة.. فالفراخ تتصايح والديك منفوش الريش يشق الفضاء بصياحه المتحشرج، كأنما يتهم الحاج رمضان بشيء ما. يتضايق الحاج متململا من جلسته الطويلة، فيدع «العشة» متجها إلى غرفته، ويتمدد على الفراش ملتمسا الراحة قبل حلول موعد الصلاة. عانى الإخفاق أياماً طويلة، وشحّ البيض، رمته الحاجة بالإهمال والتراخي، بعد أن كان يقتنص البيضة في الوقت المناسب، يضرب كفا بكف داعيا لها بالهداية ويفسر ما يحدث الآن:

- يا حاجة.. الفراخ عنيدة.. إنها تخدعني!.. فهي إما تبيض قبل مجيئي أو لا تبيض حتى أمل الانتظار وأمشي.

- ما هذا الكلام يا حاج؟ ألها عقل يفكر مثلنا؟

أكمل حديثه غير منصت لما قيل له:

- أو ربما الديك وإشاراته للفراخ..

- لا ديك ولا فرخة..

قصدت طبيباً بيطرياً، بناء على مشورة فايزة، شارحة له حال الفراخ المستعصية، فناولها عجينة دواء..

- يعني الفراخ ستشفى؟

- بمشيئة الله يا حاجة.

اتجهت بالعلاج إلى أم حسين التي مصمصت شفتيها متحسرة:

- علاج؟ الشافي هو الله.

- يعني...

- أبداً.. جربي...

في كلماتها إحباط.. لكن ماذا في وسعها أن تفعل؟ إنها على استعداد للتعلق بقشة، والجري وراء بارقة أمل.

باضت الفراخ، وابتعدت عن بيضها في سابقة لا مثيل لها، كأن البيض شيء حرام. حتى الديك الهائج لأوْهى الأسباب انكمش لصيق أفراخه.. هللت الحاجة وكبرّت، ودعت للطبيب دعوات طيبات، وطفقت تحدث كل من تجالس عن الطبيب وعلاجه.

واجه زوجته بالمشكلة التي تؤرقه كثيراً..

- يا حاجة.. ارضي عن أبي اليسر..

- لا تحدثني عنه.

- الأم لا تطرد أولادها.

- لا يوجد أبناء يغضبون أمهم.

- الموضوع لا يستحق.

أعرضت عنه وحدثت رأفت وفايزة عن شقاء طيورها. قال رأفت:

- ربنا يصلح الأحوال.

وقالت فايزة مبتهجة:

ـ حقاً.. لا تأكل أم أولادها!

عاد للبيت الكبير هدوؤه وصفاؤه، فاعتزم رأفت زيارة أخيه. بصحبة فايزة، فرح الأب بالمبادرة، ولزمت الأم الحياد، لم تنسَ أن تؤكد لجارتها أن الفراخ انصلح حالها. تظل تؤكد ذلك كل يوم، بمناسبة وبدون مناسبة، في نوبة فرح داخلي، ولما نفد العلاج، استشارت الطبيب، فقال لها:

ـ لا بأس. قدمي الأكل العادي، جربي..

خاضت التجربة فلم تنتكس الحالة. تضع الفراخ بيضها في مكانه، وتبتعد عنه زاهدة فيه كأنه الحرام لا تقربه!

عاش أبو اليسر مع حماته المسنة في شقة ضيقة.. غرفة وصالة، وارتضى المبيت على أريكة بالصالة، وانحشرت البنتان وأمهما على السرير العريض، ونامت جدتهما على أريكة ثانية وضعت متعامدة مع السرير، مستقرة في مكانها منذ سنين طويلة. قنع أبو اليسر بالحياة في شقة ضيقة، تاركا الدار الواسعة.

ونام مهيض الجناحين..

سماح زوج فاضلة. لم تُشرْ لتصرف حماتها، من قريب أو بعيد، لا مفر من تدبير مسكن آخر، لكن المنافذ مسدودة. تقدم بطلب شقة من المحافظة، فأرجيء طلبه لوجود حالات أعسر من حاله، وهناك أيضاً ـ كما قيل له ـ من يدفع ما يُطلب منه دون وجه حق. وكثيراً ما ألحت عليه كي يعطي دروساً خصوصية للتلاميذ، لكنه يتأبى ويرفض، ترغّبه سماح بأن زملاءه يفعلون ذلك، ويشترون أراضي يبنون فوقها عمارات، ويشترون سيارات،، لكنه يتأبى ويترفع. تنضم حماته إلى صف ابنتها، لكنهما لم ينجحا في زحزحته خطوة واحدة، ويتذرع بأنه يعزف النغمة الصحيحة، ويتفانى في أداء عمله، ويحقق تلاميذ فصله تفوقاً، وينال التقدير والتكريم، وهذا يكفيه. ترده سماح قائلة:

ـ قد تكون محقاً.. لكنك تعزف وحدك..

ـ تقصدين أنها نغمة شاذة؟

ـ أتمنى ألا تكون كذلك.

ويحضنها مزهوا بها، بالتي رافقته رحلة الحياة دون أن تضجر أو تتململ، بالياقوتة النادرة في زمن صعب عسير.

فوجيء بمجيء رأفت وفايزة، قضى معهما أمسية ربيعية، وتبادلوا أحاديث غير مرتبة. لكن الفراخ آكلة بيضها، موضوع فرض نفسه، وأجمعوا على أننا نعيش في زمن غريب، وتطرف القول بهم وأوعزت لهم سرائرهم أن ذلك من علامات الساعة!.. وذكرهم أبو اليسر بقصة (ريطة) التي خدعها زوجها واستولى على مالها وتركها تجتر آلام الوحدة.. ماذا دهى (صخر)؟ هل قُدَّ قلبه من حجر؟ صدق من سمّاه صخرا! وطفقت تغزل صوفا كثيراً وتنقضه، واستأجرت فتيات يغزلن الصوف معها، ثم تنقدهن أجرهن، وتنقض الغزل، وتعيد الكرة من جديد، كأن جنونا مسّها، وتلا عليهم الآية الكريمة عن التي نقضت غزلها. وأضاف رأفت من عنده ما يراه من زيف ونفاق ورياء، ومن تفكك الروابط الأسرية، وأمّنت فايزة على كلامه، بما تقرأ في صفحة الحوادث من شذوذ وقتل وخيانة، بينما انخرط الصغير تامر في اللعب مع نُهى ومنال، تاركين الكبار في أحاديثهم التي لا تنتهي، وعلى وجه الخصوص، حديث الفراخ وما أصابها.. وعقبّت أم سماح المسنة، وهي تسترجع تجارب السنين، بضرورة ذبح الفراخ، وليس هناك حل آخر.

انصرف رأفت وفايزة في وقت متأخر. وفي طريقهما إلى البيت، تذكرت فايزة زوجها المغترب في البلد البعيد، ورغبتها في كتابة رسالة، قالت لأخيها:

ـ أتمنى أن ينام تامر مبكراً، وأفرغ لكتابة الرسالة..

ـ يعقب رأفت:

ـ للغربة ثمنها..

ـ أجل.. صدقت..

وفي البيت، كانت الحاجة سهرانة بمفردها، والحاج رمضان نائماً «في سابع نومة».. سهر الحاجة يشوبه قلق وهم، سألت عن أبي اليسر.. أجابت فايزة:

ـ بخير، ويسلم عليك..

وتنهدت تنهيدة موجعة، قبل أن تكمل:

ـ يجب أن تزوريه.

وبعد يومين، زاره أبوه، طلب منه العودة للبيت الكبير الواسع، فاستمهله قليلاً، لكن الأب أحس بعدم رضا ابنه، وإيثاره الحياة في شقة ضيقة لا تسع قاطنيها، عن الرجوع إلى بيت العائلة الواسع الكبير، طيب خاطره، ونقل إليه تحيات أمه وسلاماتها، وإن كانت الحاجة لم تبلغه بشيء، وتطوع بإبلاغ رسالة من اختراعه، من باب جبر الخاطر، ولم ينس المجتمعون التطرق إلى داء الفراخ وشذوذ سلوكها، أكدت أم سماح ـ المريضة ـ ما قالته قبل ذلك، من أنه لا علاج لمثل هذه الحالة، والذبح أسلم طريقة، نقل الحاج رمضان ماسمع إلى الحاجة، فبادرته قائلة:

ـ لكن علاج الطبيب كان سبباً في شفائها التام

ولم يدم الحال سوى أيام قليلة، عادت الدجاج بعدها إلى سابق جنونها، واستلذت أكل البيض.. بينما يرفرف الديك بجناحيه، ويتصايح بصوت متحشرج، كأنه البكاء! قال رأفت لأبويه:

ـ حال الدجاج ليست غريبة في زماننا هذا، إنها تحاكي غرابة الحياة التي نعيشها.. وشرد قليلاً، ثم أكمل:

ـ ماذا يجدي علاج الطبيب؟ إنه أشبه بمُسكّن يتعاطاه المريض، حين نعطي الدجاج العلاج، تمتنع عن أكل البيض أياماً قليلة، ثم تعود إلى سيرتها الأولى، وتستلذ أكله!

أكدت فايزة على ضرورة ذبحها، فنوفر